سلسلة أمراء النصر والتحرير

الباب لم يقفل

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

سلسلة أمراء النصر والتحرير

أروع قصص الصالحين

الباب لم يُقفل

الباب لم يُقفل

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION
بيروت، لبنان، حارة حريك، شارع دكاش
تلفاكس: ٠١/٢٧٣٧٦٦
ص.ب: ٢٤/٥٣ - ٢٥/٣٢٧
www.maaref.org Email: info@maaref.org

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

- عنوان المسابقة: أروع قصص الصامدين
- عنوان القصة: الباب لم يُقفل
- الكاتب: فاطمة محسن القرصيفي
- الرعاية: بلدية بعلبك
- المنظم والناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى - تموز - ٢٠٠٨م

الباب لم يُقفل

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

من مدينة الشمس إلى شمس الحياة.

من مدينة الشمس إلى قلب الأمة النابض.

من مدينة الشمس إلى كواكب تدور في فلكه.

من مدينة الشمس إلى كل من خاف، تألم، وصمد.

إلى النيرين اللذين علماني الكفاح والصمود، أبي وأمي.

إلى ولدي، زهراء وصادق، إخوتي وأخواتي.

إلى كل من تشبث بأرضه وصمد.

إلى تراب لبنان الذي لفظ المحتل الغاشم،

إليكم هذا الشعاع الخجول.

الباب لم يُقفل

الباب لم يُقفل

١٤ تموز ٢٠٠٦ ألمانيا

... تعيش في منزلٍ زوجيّ حديث العهد، وسط كروم العنب على سفح تلةٍ عاليةٍ. في «أونترتوركهايم» إحدى ضواحي «شتوتغارت» الألمانية.

جوّها صافٍ، هواؤها عليل، منظر الكروم النضرة الخضرة يبعث في النفس شعوراً بالبهجة.

يخرق هدوءها قطارٌ يَعْبرُ مسرعاً نحو أقاصي الدنيا، يقابله نهر «نيكّار Nekar» يتهادى في انسيابه، يحدّان الشارع الذي يقع المنزل على حافته.

.... شقّ الفجر ثوب بعلبك الأسود، تثاءبت ياسمينة دار الحاج محسن فنثرت لآلئها على أترابها، وانتشت ترقب عناقيد تدلّت من عريشة الدار.

المنزل مفتوح على دار بعلبكية الطراز واسعة، تحيطها أحواض الورد، وقطعة صغيرة من الأرض زرع فيها الحاج بعض الخضروات البيتية.

الباب لم يُقفل

فـرغ الحاج من إقامة صـلاة الفجـر كعادته في باحـة الدار، فتح كفّيه على ركبتيه استغفر ربّه، رفع رأسه نحو السماء قائلاً «اللهمّ فرّج عنّا بحق محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم» جمع سـجادته وضـعها جانباً، وقف يتساءل، أشذّب العريشة أولاً، أم ألتقط أوراق الياسمينة الصفراء؟

فـي تلك الأثناء خرجت الحاجة إلى الدار، تحمل صـينية وضـعت عليها فناجين من القهوة وتقدّمت بخطوات هادئة نحوه.

– صباح الخير يا حاج.

– أسعد الله صباحك يا حاجة.

تحية لوّنت أرجاء الدار المزدانة بالورود التي تقابل مسجد الشيخ حبيب آل إبراهيم مباشرة.

قدّم كرسـياً وضع أمامها طاولة صـغيرة زيّنها بشتلة حبق حديثة، وسألها أن تجلس بجانبه.

– صبّحك الله بألف خير.

– أسعد الله صباحكِ.

– كيف أصبحت، كيف وجدت الورد والزرع؟

– جميلة جداً، تمجّد خالقها.

صـبّت القهـوة، قدّمت له فنجاناً، بادرته بالسـؤال: «هل سـنجمع العائلة كعادتنا اليوم؟!».

– أكيد... وما المانع؟!

– ليسـ هناك من مانع لا سـمح الله، ولكن... هـل ترى أن جمعنا صحيح في يوم كهذا؟!

- إنــه يوم الجمعة وقد درجنا على ذلــك، إتكلي على الله، هاتِ ما لديك من أفكار لفطور اليوم.

رنّ... رنّ... رنّ...

قطـع جرس البـاب حديثهما، توجهت نحو الدار مسـرعة لتضـع حجابها، قام الحاج ليفتح الباب.

- صباح الخير جدو، صباح الخير بابا

- أهلاً وسهلاً تفضلوا

نادى زوجته: تعالَي إنّها فاطمة وأولادها.

لم تنتظر فاطمـة خروج والدتها، دخلت حيّتهـا. فاجأتها الحاجة بقولها:

- لماذا بكّرتِ في مجيئك؟

- اشتقت إليكم، من الأمس مساءً، ضحكت وقبّلتها.

- أفضل لو تبقين في منزلك هذه الأيام.

- ولمـاذا أبقـى في البيـت؟ أنا مشـتاقة كثيراً للجلوس مع أختي سارة.

صحيح، أين سارة؟

- لم أوقظها بعد، أظنّها نامت بعد أن أدّت صلاة الفجر. فما زالت متعبة من السفر.

- سأدخل لأفاجئها.

- أيقظيها وتعالَيا نشرب القهوة سوياً.

تعاون الجميع في تحضـير الفطور، وجلسوا ينتظرون قدوم الحاج

الباب لم يُقفل

فقد خرج لإحضار الخبز الطازج.

نادت الحاجة الجميع، محمد علي، زوجته سارة وابنهما محسن (الحفيد).

محمد حسن وزوجته خلود، محمد حسين صغير العائلة، فاطمة وولدَيها زهراء وصادق، سارة (الإبنة) وولدَيها جنى وعلي.

طال جلوسهم حول طاولة الطعام، أخذهم الوقت يتبادلون الأحاديث حول أحداث الساعة، كلٌّ من منظوره الخاص.

تفاوتت درجات الخوف مع اجتماعهم على حقِّ المقاومة في كل ما قامت به.

أما سارة (الإبنة) فبدت مستاءة جداً، هي التي حضرت من ساحل العاج منذ أسبوع فقط لقضاء عطلة الصيف، على أن يوافيَها زوجها بعد شهر.

بكت بحرقة قائلة: كفانا حروباً يا جماعة، ألم يحن الوقت لنعيش بسلام!؟!

لم تكد سارة تنهي كلامها، حتى توالت عليها عبارات الإستغراب والإستنكار.

عندها قطع الوالد النقاش قائلاً: أدعي الله يا سارة ليحفظ المقاومين وينصرهم، وسلّمي يا ابنتي بأنه «لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، وكان لا بد من حدوث تلك العملية، حضنها وقبّل رأسها، فابتسمت راضية.

هنا تدخّلت فاطمة قائلة: «أرجوكم أيقظوني، لا أصدق أنّ سارة نطقت

بما سمعت، ليتكم رأيتموها عندما سمعنا النبأ أثناء تواجدنا في حارة حريك (في ضاحية بيروت الجنوبية) يوم الأربعاء، الأول من أمس.

أجابتها سارة: أجل، فرحت كثيراً يا أخيّة، ولكنني غير مطمئنة للمستقبل، ولو كنت أعلم لما تركت زوجي وأتيت إلى لبنان.

عادت فاطمة لتسهب في الوصف. ليتكم رأيتم ما رأيناه في الضاحية.

وبدأت: ياجماعة كنّا في تلك اللحظة في منطقة الشياح عندما عَلَت أصوات المفرقعات والألعاب النارية، شعرنا بالخوف للوهلة الأولى، ما لبث أحد الركاب أن قال: لا تخافوا، أظنها مظاهر بهجة وفرح بصدور نتائج شهادات محافظة الجنوب، موعدها اليوم.

ردّ عليه راكب آخر: صحيح فنتائج بيروت صدرت أمس.

وصلت الحافلة إلى مدخل حارة حريك، ترجّلنا أنا والسارتان، أختي وسارة زوجة علي، لتستقبلنا حواجز المحبة وحلقات الفرح والدبكة، المواطنون يوزّعون الحلوى وأصوات مكبرات الصوت تهزّ الأرجاء بأناشيد النصر.

سألنا حاجز محبة على مدخل ساحة الشورى إذ كانت هناك الفرحة الكبرى، وكان منزل مَنْ قصدناهم في رابع مبنى خلف الأمانة العامة.

أقسم لكم يا جماعة، لو لم نكن مضطرين لإيصال الأغراض لآل حرب لما تركنا الإحتفالات في الشارع. أليس كذلك يا صبايا؟ وتوجّهت إلى سارة بالسؤال.

الباب لم يُقفل

ردّت سارة: أخبريهم ماذا حدث بعد ذلك وكيف خرجنا من منزل آل حرب.

تحوّلت فرحتنا قلقاً بعد جلوسنا عند الجماعة بقليل، قدّمت لنا صاحبة المنزل القهوة، تناولناها على وقع تبادل أحاديث الفرح، أعطيناهم ما نودّ إرساله إلى حوراء مع صديقتها الحاجة أميرة. عند ذاك رنّ جرس الهاتف، رفع الحاج السماعة فإذا هي الحاجة أميرة تخبرهم بأنها لن تستطيع القدوم إلى بيروت لأنّ طائرات العدو قصفت جسر «طير فلسيه» الذي يربط قضاء النبطية بقضاء صور، وبعده جسر «القاسمية» الذي أدى إلى قطع الطريق الساحلية بين صيدا وصور، وأنا الآن محتجزة في مدينة بنت جبيل.فقال لها: وماذا ستفعلين بسفرك يوم السبت إلى ألمانيا؟!

آمل أن لا يستمر الوضع هكذا حتى يوم السبت فقد اعتدنا على ذلك، يوم يومان وتنتهي إسرائيل من صبّ حقدها.

نتمنى لك الوصول بالسلامة. سلّمي على الجميع عندك.

وضع السماعة من يده بقوة صابّاً جامّ غضبه على شركة الكهرباء فالتيار الكهربائي مقطوع ولم يستطيعوا مشاهدة الأخبار التي أخبرتهم إياها الحاجة أميرة.

تبدّلت الأجواء، سمعنا ما جرى من حديث، راقبنا تقاسيم وجهه سألناه ليخبرنا ماذا أزعجه، هل حدث لهم مكروه؟

وقتذاك سألَنَا أن نستعجل العودة إلى بعلبك لأن ما أخبرته إياه الحاجة أميرة لا يطمئن.

هنــا تدخّلت الحاجة ســاجدة قائلة، لكن لمــاذا تركتن الأغراض عندهم؟ ماذا لو ألغت الحاجة أميرة سفرها؟!

لـن تلغي سـفرها يـا أمـي، فأولادها فـي ألمانيا مـع أبيهم، وهي مضطرة للعودة.

سلّمها الله لكن ولادة أختك بعد أربعة أيام، ومسحت دمعة ترقرقت في مقلتها.

علا صـراخ الأطفال الذين كانـوا يلهون خارجاً، دخـل كلٌّ منادياً ماما! ماما!

إجوا! إجوا! ولاذ كلٌّ بأمه.

إهتزت الأرض، وعمّ الأرجاء هدير قوي فرّق جمعهم، حضـنت كل واحدة أولادها في زاوية من المنزل ظنتها الأكثر أمناً.

خرج الحاج محسـن مـن الداخل وقد جهّز نفسـه للخـروج وأداء صلاة الجمعة في المسجد، تقدّمت زوجته طلبت منه أن يقنع فاطمة بالعودة إلى منزلها برفقة أختها سـارة، ظناً منها بأن حيّ رأس العين أكثر أمناً.

دار جـدال عقيـم بينهما إنتهى بإصـرار فاطمة علـى البقاء حتى المساء.

دوّى فـي الأرجاء انفجاران قويان تبعهما هدير مرعب هزّ المكان، علا صـراخ الأولاد مـن جديد، ترافق ذلك مع وصـول مروة وأولادها علي وحسـن، مـا إن رأتها والدتها حتى ارتمت على أقرب كرسـي لها وبدأت تبكي وتتساءل: إلهي ماذا حدث؟! ماذا سيحدث؟! ثم توجّهت

الباب لم يُقفل

إلى مروة بالسؤال حتى أنتِ أتيتِ يا أمي!

لماذا تجمعون الأطفال في مكان واحد؟! تفرّقوا بحق الحسين عليه السلام؟!

فقدت الحاجة هدوءها، وبدأت تتفقّد أولادها.

أين محمد علي، أين محمد حسن، ألم يحدِّد محمد حسين وجهة سيره؟!

أجابتها مروة: اليوم الجمعة، أظنه مع رفاقه في رأس العين.

يا ربّ سترك. واسترجعت.

كانت تسكت تارة، تناجي ربها، وأخرى تنادي البنات أدخِلْنَ أولادكن، دخلت سارة سألت أين أختي مروة؟

أجابتها الوالدة باكية: إنها في الدار، أخرجي ساعديها بإدخال الأولاد.

زوجها يريد أن يكلمها بالهاتف، ناديها.

دخلت مروة رفعت السماعة، بعد التحية والسلام، سألها:

ما رأيك أن تأتي أنت وأخواتك والأولاد إلى دار جدي؟ فالبيت فارغ وقد نظّفتُ بركة الماء وأصبحت جاهزة للسباحة. أحضرن ما تحتاجونه.

أحسنت يا محمد، فوالدتي في حالة إضطراب وتوتّر والأولاد يُحْدِثُونَ ضجيجاً غير مقبول.

خرجن كل تمسك بأولادها، اتجهن غرباً نحو دار الجد «الحاج أبو رستم» الذي يبعد قرابة المئتي متر عن منزلهم في حي الشيخ حبيب آل إبراهيم.

قضى الأولاد نهاراً ممتعاً فالحديقة كبيرة والماء وفير والمنزل خالٍ من أي أثاث فالحاج أبو رستم وزوجه توفيا منذ زمن ولا أحد في البيت سوى ولدهما الحاج أحمد يسكن الطابق العلوي وهو مغترب في بريطانيا.

قابل فرح الأطفال قلق الأمهات لما سيجري.

عند المغيب وصل محمد حسين، دخل مبتسماً يطير فرحاً وكانت ابتسامته تتحوّل إلى ضحكات عالية كلّما قَدِمَ أحد الأولاد. فثيابهم مبللة، آثار اللعب بالتراب بادية على وجوههم وأيديهم، تحلّقوا حوله صارخين: «خالو حسين».

أحبائي جئتكم بنبأ سار، صاح الأولاد عرفناه:... تريد أن تأخذنا إلى مرجة رأس العين.

لا، إنه مشوار العودة إلى البيت. لا .... صرخ الأولاد.

عندما تعرفون السبب ستفرحون، لكن لدي شرط واحد هو، المحافظة على الهدوء لأجل جدو والتاتا. هنا سألته فاطمة: ما رأيك لو بقينا هنا حتى يقرب موعد نومهم نأخذهم فينامون فور وصولنا؟

لا يا فاطمة، أنا أتيت لأجل إخباركن بأن الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله سيوجّه رسالة إلى الشعب اللبناني عند السابعة والنصف عبر تلفزيون المنار، بعد قصف الضاحية اليوم.

عند ذاك صرخت ماذا؟!... الضاحية؟!... لماذا؟!....

متى حصل ذلك؟

- اليوم بعد خروجكن.

الباب لم يُقفل

صفقت راحتيها قائلةً لماذا لم نحضر معنا جهاز مذياع؟! يا ربّ ماذا حدث؟!

هيا جهِّزنَ الأطفال بسرعة، استدارت فاطمة لتساعد ولديها على تبديل ملابسهما، ناداها حسين: تعالي يا فاطمة، لا تخبري سارة أختك الآن، انتظري حتى نصل إلى المنزل.

هنا تذكّرت، قلتَ أنهم قصفوا الضاحية، أيّ مكانٍ في الضاحية؟

– لا تسألي، قصفوا أهمّ مكان في الضاحية.

– ماذا؟ صرخت...

– قصفوا المربع الأمني في حارة حريك.

– أمسكت بذراعيه أقسمت عليه بأن يخبرها عن السيد.

قال لها: إنه بألف خير، والآن سترونه. أدخلي واستعجليهما.

وصلوا إلى المنزل، فوجئوا بالوالدة جالسة تبكي، دنت منها فاطمة سألتها: ما بكِ؟

– آخ يا فاطمة، نجا أقرباء الحاجة أميرة بأعجوبة.

– كيف؟ ومَنْ قال ذلك؟

– الحاجة أميرة هاتفتنا وأخبرتنا بذلك.

– وماذا عن سفرها؟

– ستخرج إلى سوريا فور تمكّنها من الوصول إلى بيروت وتسافر من هناك.

–الحمد لله يا فاطمة أنها نجت هي وأقاربها فقد أخبرتني بأن المبنى الذي يسكنونه شَطَرَهُ صاروخ إلى نصفين، وبذلك دُمِّر نصف المنزل، والأغراض التي أرسلناها لأختك في النصف المدمَّر.

- لا!! .... صرخت ثم انتبهت. نشكر الله على سلامة الجماعة والله يعوض الأغراض.
- الأغراض كلها ليس لها قيمة سوى شيء واحد.
- ما هو يا أمي؟
- إنه حرز الأئمة عليهم السلام أرسلته لها لتسهيل ولادتها.
- سلّميها لخالق الأئمة يا أمي ، وادعي لها.

دخل وقتذاك الحاج إلى الغرفة حاملاً سجادة الصلاة وطلب من بناته إرسال أولادهن إلى باحة الدار ليقيموا صلاة المغرب.

دقت الساعة السابعة والنصف، تحلّق الجميع حول جهاز التلفاز، بدأ المذيع: السلام عليكم إخوتي أخواتي المشاهدين ورحمة الله وبركاته.

إليكم أيّها الشعب الصامد، رسالة قائد المقاومة تاج المقاومين سماحة السيد حسن نصر الله.

وما إن ظهر السيد على الشاشة حتى رطّبت الدموع التمتمات بالدعاء لسلامته، وعلا صراخ الأطفال: «يا الله يا الله! إحفظ لنا نصر الله». وبدأ:

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته «إن ينصركم الله فلا غالب لكم» صدق الله العليّ العظيم....»

راهنّا على الله وعلى شعبنا وعلى قلوبنا وعلى سواعدنا وعلى أبنائنا، ونحن اليوم نقوم بنفس الرهان والنصر آتٍ آتٍ إن شاء الله.

المفاجآت التي وعدتكم بها سوف تبدأ من الآن، الآن في عرض

الباب لم يُقفل

البحر في مقابل بيروت، البارجة الحربية العسكرية الإسرائيلية التي اعتدت على بنيتنا التحتيـة وعلى بيوت الناس وعلى المدنيين أنظروا إليها الآن تحترق وستغرق ومعها عشرات العسكريين الصهاينة. هذه البداية وحتى النهاية كلام طويل وموعد والسلام عليكم».

عَلَت صرخة هزّت جدران المنزل اللـــه أكـــبر.

وأضـاءت بعلبك بنيـران المفرقعات، خرجت المواكب السـيّارة، خرج الجميع إلى الشوارع يهتفون، فقد أصبح ليل بعلبك نهاراً.

خرجوا كلهم إلا الحاجة تسمّرت في مكانها لاهجةً بالدعاء لسلامة السيد والمقاومين.

نهضت لتحضـر منديلاً تمسح دموعها، وإذا بجرس الهاتف يرنّ، تقدّمت منه راقبت الرقم على الكاشف، غريب إنه من الخارج.

رفعت السماعة: نعم.

– السلام عليكم. ماما كيف حالكم طمنّونا عنكم.

– لا تشـغلي بالـك، فالـكل بخير، فقد خرجـوا يهلّلـون مبتهجين بقصف البارجة الحربية الإسرائيلية «حانيت».

– مامـا حبيبتي أرجوك، أقبّل يديك، حاولوا أن تجهّزوا مكاناً آمناً خارج الحيّ. ولتسـعَ سـارة بالعودة إلى سـاحل العاج فالوضع على ما يبدو سيصعب عليكم جداً.

أرجوك أقنعي الوالد بضرورة خروجكم جميعاً من الحيّ خصوصاً أنّ إخوتي لن يلتزموا المنزل.

– لا تخافي علينا يا حوراء فالله حامينا، انتبهي لنفسك، هل نسيت

فقد اعتدنا، يوم يومان وستنتهي.

لا يا أمي! إنهم يتكلمون عن مخاض طويل.

١٥ تموز ٢٠٠٦ ألمانيا

.... تحوّلت عن جهاز التلفاز الذي تسمّرت أمامه منذ ثلاثة أيام، وقفت خلف النافذة، أزاحت الستائر الرقيقة وحدقت تنظر إلى الشارع الهادىء.

كان جواً صافياً رطباً، مرّ بائع الحليب الطازج، قرع الجرس، سمعت لكنها لا تدري لماذا تسمّرت في مكانها ولم تفتح له، وضع قوارير الحليب أمام الباب مشى وهي تراقبه فقط.

ابتسمت زهرات زنبق بيضاء فاتحةً ثغرها للشمس لتخطّ شفاهها بأشعتها، لاويةً عطفَيْها غنجاً على شتلات تجاورها في حوض تحت النافذة.

آه .....

آهةُ حُزنٍ لَوَتْ ضلوعها، مزّقت أحشاءها، فجّرت دمعاتها الحارقة.

شتان بين صباحات «بعلبك» وصباحات «شتوتغارت».

... أما زالت شمسك تشرق بهيةً، يا مدينة الشمس؟

... أما زال صوت مؤذن مسجد الشيخ حبيب يصدح كعادته عند الفجر؟

... أما زال شبانك يتجهون عند الفجر إلى المساجد؟

الباب لم يُقفل

أخبريني بعلبك عن عناق أعمدة قلعتك للشمس عند الشروق.

هل ما زالت ياسمينة دارنا تقطر فضةً لألاءةً عند الصباح؟

كيف يلهو أطفالك؟ هل يخرجون إلى مرجة رأس العين عند الغروب؟

آه بعلبك ...! لو لم يكونوا، لما كنتِ.

... أشرقت شمس بعلبك نشوى تبعث ضياءً اختزنته من قمر شعَّ ليلاً يمدّ النفوس بالقوة والصمود. تبدلت معها الأحوال لم يعد هناك من خائف. استيقظ الجميع باكراً، أدّوا صلاة الفجر وجلسوا يتبادلون الأحاديث على وقع زقزقة عصافير عشّشت في شجرة صنوبر عالية إتكأت على سور الدار مقابل المسجد.

لم تَطُل الجلسة كالعادة، أصرّ الحاج على إيصال فاطمة وسارة والأولاد إلى منزل فاطمة باكراً، لأن الأمور تنذر بالتصعيد، ومهما استهدف حي رأس العين لن يكون مثل حي الشيخ حبيب.

بدأ يوم السبت شبه عادي، كلٌّ توجه إلى عمله، المدينة في حركة عادية تحولت بعد الظهر إلى مدينة شبه خالية تغطيها سحب سوداء تتصاعد من مبانٍ صفّقت جدرانها واستلقت تلتحف أسقفها.

كلّما همّ الحاج بالخروج، تصرخ الحاجة، رحم الله والديك، أقبّل قدميك اجلس.

بينما كانت ترجوه الدخول إذا بالباب الخارجي يفتح بقوة غريبة مع دوي انفجار قوي واندفع داخل الدار الشبان الثلاثة محمد علي، محمد حسن و محمد حسين صارخين: ضربوا الحي.

توجّـه محمد علي مسـرعاً ليسـاعد زوجتـه بالنزول مـن الطابق الثاني، لم يكد يصـعد الدرج الأول حتى سـمع صـراخها ساعدني يا علي، الضرب قريب. وصل، الباب مكسور، الزجاج غطى الأرض وهي واقفة وسـط المنزل تحمل طفلها الذي لم يكمل أشهره الثلاثة، أخذ الصبي منها، أسرعي إلبسي حجابك، وتوجّها نحو الدرج.

تذكّرت الحليب للطفل عادت لتحضـره وكانـت الغارة الرابعة. لم تحضر شيئاً وعادت تهرول مذعورة، وصلوا إلى منزل الأهل.

الكل يلوذ ببعضه، والتعليمات تتضارب فواحدة تقول: أخرجوا إلى الحديقة، والثانية: لنقـف في الممر الداخلي، أما الحاجة فتقول: كل الأماكن خطرة فالضرب قريب والظاهر أنهم يريدون تدمير الحي.

صرخت زوجة حسن أنا لا أريد أن أرى الصاروخ الذي سأموت بسببه. صرخت الحاجة: سلّمي أمرك لربك، هنيئاً لمن يقتل شهيداً مظلوماً.

كان ذلك اليوم يوم حيّ الشيخ حبيب آل إبراهيم بامتياز. كلّما خبا صـوت الطيران، ظنوا بأنهـم غادروا الأجواء، وما هـي إلا ثوانٍ ويهزّ الأرجاء دويّ انفجار آخر.

بعـد أن اطمأنـوا لخلوّ الجو من الطيران نهضـوا لينظفوا ما تناثر من أثاث وتكسّر من زجاج.

أثار جرس الهاتف أعصـاب الجميع (الأقـارب والأحبة يطمئنون على سـلامتهم)، فالكلّ منهمـك في العمل، إلا الشـبان فقد خرجوا للمسـاعدة في إنقاذ مَنْ سـلم مكان الإسـتهداف. مـا يقارب المئتي متـر من منزل الحاج يقع أول منزل مدمّر (منزل أبو سـليم) بجانبه

الباب لم يُقفل

مبانٍ سـوِّيت بالأرض وأخرى تضـررت، تتجه شرقاً منزل (السيد أبو هشام) واحصِ وأنت تتقدم صعوداً على الشارع الرئيسي نحو الشرق مبانٍ أصـبحت أطلالاً، سـاحات اسـتحدثت وسـط الحي وصولاً إلى منزل الشيخ محمد يزبك.

غيّـر الدخـان لون الشـفق عند الغروب، فأصـبح بنّيـاً مائلاً نحو السواد، وغاصت بعلبك في سوادٍ قاتم.

حضرت تلك الليلة مروة يرافقها زوجها والأولاد.

عندما رأتها الوالدة صرخت: إلى أين يا مروة؟!؟

نريد إبعاد زوجات أخويك عن المنزل، وتأتين أنت بأولادك!

هل جننت؟

-لا يا أمي، إني بكامل قواي، وبكت.

هنا استدركت الحاجة وسألتها: هل كان القصف قريباً منكم؟

لا يـا أمي، لكـن شـباناً أتوا إلينـا، طلبـوا منا الخروج السـريع والإبتعاد عن الحي. فردّت مسـتهزئة: خرجتم من حي العسيرة إلى حي الشـيخ حبيب.

مهما حدث يا أمي فإنني أشـعر بالأمان هنا. مهما حصل أنا باقية هنا فليخرجوا هم.

أطبـق الليل بثقله على مَنْ تبقى في الحيّ، تخرق سـكونه أصـوات طائرات التجسـس التي لم تفارق الأجواء، إذ كانت ترصـد كل حركة على الأرض.

أقفر الحي من جميع أهله، كان من بقي لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

جلس الجميع في غرفة الجلوس على ضوء شمعة خافت يطفئونه بين الفينة والأخرى.

تفقدت الحاجة ساجدة الجميع، صرخت يا علي، أين أبوك؟

هدّأها قائلاً: إنّه يصلي في الدار.

- ألم ينقضِ وقت الصلاة؟!

- أتركيه ذلك أفضل من الجلوس هنا؛ ... يجب أن نترك بعلبك إلى أيّ مكان آخر.

وقتذاك قال علي لزوجته: أخرجي أنت والصبي مع أهلك إلى دار عمتك في طرابلس. وأنت يا حسن دَعْ زوجتك تذهب مع والدتها وأخواتها إلى حمص، ونبقى أنا وأنت مع أهلنا هنا.

هنا قالت الإثنتان: لا والله، لن نخرج وحدنا.

إنقسمت العائلة، النساء والأطفال في الغرفة، والرجال خارجاً في باحة الدار.

قرب الوقت من السَحَر، والجميع لم ينم فالطائرات الحربية غطت بعلبك تقوم بغارات وهمية من وقت لآخر.

بزغ فجر الأحد، لم تصدح مئذنة المسجد معلنةً حلوله، الكهرباء مقطوعة ولم يبقَ أحد في الحيّ.

أدّى الحاج والشبان الصلاة،، دخل الحاج ألقى عليهم تحية الصباح، وقف أمامهم وقفةَ حائرٍ غير مقتنع بما سيقوله، لكن حماية الأطفال والنساء واجبة.

يا جماعة، أقسم عليكم، إحملوا ما تيسّر واذهبوا إلى دار عمي

الباب لم يُقفل

الحاج «أبو رستم»، علّه يكون أكثر أمناً، أقلّه لم يتضرر كمنزلنا. سأطلب من الشبان مساعدتكم.

إحملوا الفرش والوسادات، لا تنسوا الأدوية وحليب الأطفال، وما تبقى من خبز وطعام.

خرجوا على دفعات، في أثناء هدنة صغيرة. كان آخر مَنْ سيغادر الحاج محسن والحاجة ساجدة حسب ما قرّر الشبان.

عادوا وجدوهما جالسَيْن في باحة الدار جلسة لا توحي بالتأهب للخروج.

السلام عليكم

هيا ماذا تريدان أن تحملا معكما؟

أجابه الوالد: لا شيء.

ردّ علي مستغرباً: لا شيء!! إحملا فقط وسادتيكما والأدوية. ولكن لم يتحرك أحد.

دخل، حمل الوسادتين والأغطية وكيس الأدوية الخاصة بهما، خرج وكانت المفاجأة.

الوالد رفض الخروج بشكل قاطع. سألته زوجته: لماذا غيّرت رأيك، ألم تكن صاحب الفكرة؟

أجابها: نعم. أنا صاحب الفكرة، لكن خروج الأطفال والنساء فقط.

قال علي حينها: إطمئن يا والدي لن نترك البيت سنتناوب على البقاء هنا أنا وإخوتي.

لا، لن أخرج. خذوا والدتكم واتركوني.

توسّلت إليه زوجته، أرجوك إرحم نفسك، وارحمنا.

بعـد نقاشـ طويـل نزل عنـد رغبتهـم. رفع طرفـه إليهـم قائلاً: اقتلعتموني.

حملـت الحاجة بعض الحاجات وخرجت، الحاج مسـمّر أمام باب يفتح على صـالة كبيرة يربو طولها على الخمسـة عشر متراً وعرضها على الخمسة أمتار أشبه بديوان عربي كبير وقد فرشت على طرازه.

الزجاج غطى الأرض، الستائر ممزقة، الحيطان ملطّخة بالسواد، تناثرت بقايا لوحات وآيات قرآنية كانت معلقة على الجدران.

تقدمت الحاجة وقفت إلى جانبه بهدوء، تناهى إلى سَمْعها بعض ما كان يتمتم به الحاج: «السـلام عليك يا بقية الله الأعظم، السـلام عليك يا أبا عبد الله الحسين».

التفت، نادى الشبان قائلاً تعالَوا إلى جانبي، تحلّقوا حوله والوالدة قال:

تعلمون أنّ هدف بناء هذه الصـالة بمسـاحتها الكبيرة كان إقامة ذكـر آل البيت عليهم السـلام، وقـد دَرَجْنا على ذلك لخمس عشـرة سـنة خلت يومياً الساعة الثامنة صـباحاً، أوصيكم وأضع وصيتي في عنق مَنْ يبقى منا، أن تبقى هذه الصـالة لذكرهم عليهم السلام وأن تعيدوا بناءها كما هي ولو دمّرت بالكامل.

هنا قالت الحاجة: نسأل الله أن يطيل في عمرك وتبقى أنت مَنْ يقيم ذكرهم عليهم السلام، أرجوك لا تشعل قلبي بأفكارك فنارها تحرقني.

وضعت الحاجة من يدها ما كانت تحمله أرضاً عانقته ونظرا بعيون دامعة إلى الصالة.

الباب لم يُقفل

تقدّم علي حضنهما، أرجعهما إلى الخلف واستدار ليقفل باب الصالة.

إنتفض الحاج صارخاً: لا ..... لا تقفل الباب يا علي ...!!

تراجعت الحاجة خطوة، سألته: لماذا، وكيف سنترك أبوابنا مفتوحة؟! الأثاث غير مهم، الباب أهمّ.

الحيّ خالٍ، ولا نعرف كم ستطول غيبتنا، وماذا سيحدث.

عاد وكرّر: لا لن تفعل. ووضع المفتاح في الباب.

خرجوا.

وكان النزوح الأول من حي الشيخ حبيب آل إبراهيم.

وصمت عن الكلام.

وأخيراً اجتمعوا في دار الجد.

كان هدير شبح الموت هناك أقوى، الجدران تصفّق بشكل مرعب، الظلمة موحشة، فالحيّ بلا كهرباء وبلا ماء.

لم تكد تهدأ قلوبهم المرعوبة حتى عادت الغارات والقصف بالصواريخ.

الجميع يتكهّن وعلي يقول لهم، اتقوا الله، اصبروا، اقرأوا الشهادة، سارة حضنت ولديها، مروة وزوجها حضنا أولادهما يتوسلون الله.

وانجلى الغبار عن دمار كبير في حيّ «آل اللقيس» الذي يقع غرب المنزل وعلى مقربة منه.

تفقدوا بعضهم، هنّأوا بعضهم بالسلامة وقام كل واحد بالتقاط ما وقع قربه من بقايا وشظايا تطايرت من جرّاء القصف.

... جـنّ الليل، ألقى رداءه على وجه الأرض، هجر النوم أجفانهم، خياله يلوح وأجنحته السـوداء تخيّم عليهم، يتفقّدون بعضـهم بعضاً وكل يسأل ألا تريدون أن تناموا؟!...

أما الحاج فاتخذ من شرفة المنزل الشرقية مقابل الشارع مجلساً، يحمل المصـحف بيد وباليد الأخرى يسـلّط ضوء هاتفه الجوال على صفحاته ويقرأ.

كان ذلك دأبه في الليل والنهار، قراءة قرآن، دعاء، صلاة وعندما يتعب ينام قليلاً ليزداد قوة. أما أكله فبعد جهد جهيد كان يأكل قليلاً مع إصرار الحاجة لأن لديه دواء دائماً.

اعتـاد الجميـع على طريقـة الحياة العارضـة، وتذكّـروا الحديث الشريف الذي كان الوالد يكرّره على مسامعهم دائماً، «إخشوشنوا فإنّ النعم لا تدوم». فقدت بعض النعم مع إمتحان الصمود والمقاومة.

كانوا نِعَمَ الصَّـامدين المقاومين، حتى أنّ الشبان وجدوا في ذلك بعض المتعة، مع ما كانوا يكابدونه.

نفدت المياه من الحيّ، الشبكة العامة دُمِّرت، خزان «اللجوج» الذي يغذّي الحيّ دُمِّر، الكهرباء مقطوعة وبذلك لا يمكن سـحب المياه من الآبار، هكذا برز سبب ليموّه علي على طلعاته المتكررة، الغامضة.

فبدايـةً كان يخرج بحجّة إلقاء نظرة على البيت وريّ المزروعات، وبعدهـا تفقّد أحوال أخواتـه في حيّ رأس العين، فأضـاف إلى ذلك الذهاب إلى نبع «اللجوج» الواقع على طرف بعلبك الشرقي لجهة جُرد نحلة لإحضار مياه للشرب. تلك كانت الحجة الظاهرة ولكن....

الباب لم يُقفل

كان يومياً يحمل مستوعبات المياه ويغيب.... ثم يعود فَرِحَاً بأخبار شتى.

أنسى خروج الشبان الدائم الحاجة ساجدة همومها وأصبحت كلّ يوم تحترق بنار الإنتظار وأصبحوا يخرجون جميعهم يومياً بحجة مساعدة علي.

ذات يوم ظنّت الحاجة ساجدة أنها ستضع حدّاً لحجة الخروج تلك ففي أثناء جلوسها ذلك اليوم مع جارتها الحاجة أم علي الجمّال أخبرتها الحاجة بأنها كتبت سورة «قريش» على رقعة ورمتها في خزانات المياه، فبإذن الله لن تفرغ وستسلم من القصف.

عند قدوم الشبان أخبرتهم الحاجة بذلك، لكن لم تكن حجة مقنعة لمنعهم من الخروج، فأصبحوا يبتدعون حججاً أخرى.

إنه اليوم الثامن عشر من شهر تموز، سادس أيام الحرب، واليوم الرابع من نزوحهم عن دارهم.

أشرقت شمس الصباح على غير عادتها اليوم، غمامة خفيفة بيضاء حجبت بعض نورها فانعكس ذلك ضجراً وحيرة في النفوس.

جاء الصباح بعد ليلٍ مُظلمٍ طويل، أنهك قواهم من السهر المستمر، وكان أكثر مَنْ عانى في تلك الليلة مروة وزوجها، فولداهما قَضَيا الليل يبكيان ويفتقدان بيتهما والنوم على وسادتيهما. فحضن الوالد واحداً، وحضنت الوالدة الآخر وبدآ بقراءة ما حفظاه من آيات القرآن الكريم، علّ الولدين يسكنان، وينامان.

انتبهت مروة فوعدتهما بأنه عند خروج أخيها علي ستوصيه بإحضار الوسادات والألعاب من البيت.

استغلّ علي هدنةً واضحةً يومها، وقرّر أن يذهب إلى الصيدلية لإحضار الدواء لوالده. توجّهت إلى الجميع بالسؤال: هل يريد أحد منكم أي دواء من الصيدلية فعلي سيخرج، هبّت مروة: نعم أنا، لكن ما أريده ليس دواءً.

- ماذا؟ أسرعي قولي. قالت الوالدة.

محمد أعياه السهر ولم يستطع الذهاب معك، فأرجوك يا حبيبي إذا طالت الهدنة واستطعت الوصول إلى حيّ العسيرة، أرجوك أحضر لي أغراضاً للأولاد والوسادتين من غرفة نومهما. هاك المفتاح. وناولته مفتاح منزلها.

ودّع والديه، سألهما الدعاء وخرج.

خرج، فتح السيارة أدار المحرك ثم أوقفه ليفكّر كيف سيتجه، خطر بباله أن يسأل جارهم أبا علي إذا كانوا يحتاجون شيئاً، فولدهم الوحيد مع المقاومين في الجنوب، وهم يستحقّون العَوْن.

ركب السيارة واتّجه نحو السوق فالصيدلية الوحيدة في الحيّ متضرّرة ومقفلة. لم يوفَّق بصيدلية تعمل، فقرر الإتجاه نحو الشراونة علّه يجد أحداً فذلك الحيّ يعدّ آمناً إلى حدٍّ ما.

وُفِّق بصيدلية تعمل لكنّه لم يجد الدواء، نَصَحَه الصيدلي بأن يذهب إلى دورس فلا بدّ أن يجده هناك.

خرج، وقف أمام الصيدلية يتساءل، هل أتجه جنوباً من ناحية القلعة أم أعود من حيث أتيت أحضر الأغراض لمروة؟

ربِّ يسِّر، لأستغلّ هذه الهدنة وأذهب إلى حيّ العسيرة، وأتجه شرقاً.

الباب لم يُقفل

ما إن وصل إلى تقاطع ما يسمى بحيّ آل ياغي، آل عثمان، آل الجمّال، آل رعد، حتى شعر بأنّ الأرض اهتزت، غطت الشارع سحابة بيضاء، وبدأت تتناثر الحجارة والشظايا، ترجّل مسرعاً من السيارة لاذ بأحد المحال وإذا بدَويّ صاروخ قوي، ولشدة ما سبق صوت الإنفجار من آثار كان كلّ مَنْ بقي في الحيّ يظن أن الصاروخ استهدفه.

انجلى الغبار، خرج مَنْ صمد ليستكشف المكان المستهدف، كان شبان المقاومة المرابطون على الطرقات أول الواصلين، أقاموا حاجزاً عند تقاطع مسجد الإمام علي عليه السلام ليمنعوا الوصول إلى ذلك المكان من حي الشيخ حبيب وحي رأس العين وحي آل ياغي.

ترك علي السيارة في مكانها، اتجه سيراً نحو العسيرة، سأل شبان الحاجز فأخبروه. تمتم لو لم تتلكأ يا علي لفزت بالشهادة. وصار يلهج بدعاء إلهي إلهي أسألك رضاك والجنة.

شرفة منزل الحاج «أبو رستم» مغطاة بطبقة من الأتربة والأحجار بمختلف الأحجام والأشكال. خرجوا بعد هدوء العاصفة، كلّ يمسك حجراً ويتكهّن. نظر محمد مازحاً سأبحث بين الأحجار وأكتشف إذا كانت البناية التي نسكنها استهدفت، هنا صرخت مروة لا .... لا تقلها فعلي ذهب لإحضار الأغراض لنا من هناك.

سمعت الحاجة ساجدة، ذلك لكن بعض ما سمعته فهمت منه أنّ بيت مروة قصف وعلي هناك.

خرجت صارخةً، ماذا أصاب علي يا مروة؟!

هل كان من الضروري إحضار أغراض للأولاد؟!

للوهلة الأولى بدأت تبكي لكنها استدركت ورفعت يديها نحو السماء « يا ربّ، يا رادّ يوسف إلى يعقوب ردّ عليَّ ولدي علياً».

طلبه صهره على هاتفه الجوال فلم يردّ، فاصفرّ وجهه، أعاد الكرّة لم يردّ. علي ترك هاتفه في السيارة.

بينما كان يحاول ثانيةً رنّ جرس هاتفه، فإذا هي فاطمة تسأله صارخة: ماذا جرى عندكم؟ ماذا أصابكم؟ أقسمت عليك، علي في البيت أم معكم؟

لا، علي ذهب إلى الصيدلية وهو بخير.

حاولت فاطمة الإتصال به، فلم يردّ. فعاودت الإتصال بأهلها. ماذا جرى عندكم. أخبروني. الحيّ مغطّى بالدخان والغبار ولا نرى أو نميّز أيَّ مَعْلَمٍ من هنا.

لا تشغلي بالك لم يحدث لنا شيء. رمت السماعة من يدها صفقت راحاً براح قائلةً أخوك اختفى يا فاطمة!!؟...

أختها سارة بجانبها تبكي، الأولاد مذهولون. وإذا بسيارة تتوقف أمام الباب، ركض الأولاد ثم عادوا مسرعين صارخين: «خالو علي إجا، خالو علي».

لم تنتظرا دخوله، خرجتا واحدة تعانقه والأخرى تقبّل يديه، أبعدهما قائلاً، أدْخِلوا الأولاد لقد عاد الطيران الحربي.

ماذا أصابكم، وبدأت فاطمة تعدّهم واحداً واحداً، وهو يرد بإجابات مقتضبة، ثم قال لقد اطمأننت عنكم سأذهب واشتري

الباب لم يُقفل

الـدواء لوالـدي فقد خرجت من البيت لأجل ذلـك، أرجوك يا فاطمة أعطيني وسـادتين لعلي وحسـن أولاد أختك مروة فقد طلبت مني أن أحضر لهما وسادتيهما من المنزل ولكن...

لم يستغرق ذهابه إلى دورس وقتاً طويلاً، أحضر الدواء وعاد ليجد الوالـدة جالسـة على الأرض تدعـو، الوالد يقرأ القرآن على كرسـيه الثابـت على الشـرفة، زوجته تحتضـن طفلهـا، مروة وزوجة حسـن تهدّئانهما. سمعن صوت السيارة فتنهّد الجميع، الحمد لله يا رب.

دخل مبتسماً كعادته يتمهل في مشيته، ضاماً الوسادتين إلى صدره.

ركض علي، ركض حسن، وسادتي وسادتي.

أمسـك علي واحدة ثم رماها أرضـاً، أعاد الكرّة أخوه، فقال لهما علي الذنب ذنبي كان من المفترض أن لا أحضـر لكما شيئاً، وتظاهر بالغضب.

نظرت مروة مسـتغربة، قالت: صحيح يا علي من أين أتيت بهاتين الوسادتين فإنهما ليستا لنا.

تنهّد، جلس على أقرب كرسي، وبدأ، القصة يا مروة أنني لم أجدها في البيت فوجئت بأغراضك عند أميرة في الطابق الأرضي!!!!

صرخت: كيف؟!...

لا تغضـبي يا مروة فأغراض سـمر وأم علي وبيت خالك كلها عند أميـرة. أمـا أغراضـ أميـرة وآل خير الدين، فـ... وأومـأ بيده إلى الأرض.

فَهِمَ الجميع لكنهم لم يتقبّلوا الأمر. واستغرق في الوصف.

أمـا خالـي فحظه جيد جـداً، لكم تضـجّر من صـعود الدرج عند عودته من العمل. فنزل البيت لملاقاته شعوراً معه.

نظـر علي إلـى والدته، الجميـع، الكل يسـمع دون تعليـق. فقالت الحاجـة المال والبيوت كلها فدى الإسـلام والسـيد، الحمد لله على سلامتكم يا أمي والله يعوّض عليكم القرش بألف.

٢١ تموز ٢٠٠٦ ألمانيا

... كان دوام عمل زوجها مسـائياً. وحيدةً جلسـت تحت جنح الليل على منضدة خلف النافذة المطلّة على الشارع.

أسـندت رأسـها بيدها كزنبقة ذابلة تتكىء على أوراقها، تنظر ما حولها نظرات سجين يائس يريد خرق جدران حبسه.

مرّت الساعات مرور أشباح الظلمة وهي مستأمنة بلوعتها، مستأنسة بدموعها، حتى إذا ما اشتدت على قلبها وطأة عواطفها، مسّدت دموعُها وجنتيها وبملامستها لشفتيها أخرجت آهةً مزّقت ضلوعها.

آآآه بعلبك!!!....

لا. لن تموتي، قولي لهم إنّ الزهور تمضي لكن البذور تبقى، فافعلوا ما تشاؤون.

وكانـت الغفـوة أقوى، نبّههـا منها صـوت القطار الآتـي من بعيد فانتفضت باكيةً.

أيّها القطار!!!.... خذني معك ....

ضـاق قلبها، تقرّحـت أجفانها من حـرارة الدموع، لـم تجد غير المناجاة.

الباب لم يُقفل

آه يا ربّ .....!!

إلهي كيف السبيل إليها؟! ....

وبدأت تبثّ شكواها إليه علّه يرقّ لحزنها وألمها فيأخذها إليهم، تستشهد معهم ولا تموت ضحية الحزن والبعد.

خذني يا قطار، خذني إليهم، أتوسل إليك.

.... خيَّم الليل الناظر بعيون السماء، متوجاً بالقمر، يفتح الأبصار أمام اللانهاية، فيه تأنس الأرواح، صمته شفوق يغمض بأصابعه أجفان المظلومين الصابرين، يحمل قلوبهم إلى عالم الآمال والأحلام.

لكنّه تبدّل تلك الليلة، غطّت عيونه غشاوةً سوداء، جفا أجفان الصابرين، الخائفين، لكن أرواحهم لجأت إلى أنيس الذاكرين.

إلهي هَبْ لي كمال الإنقطاع إليك.

عبارة لطالما رددها على مسامع أولادهم.

إجتمعت العائلة في غرفة صغيرة وسط المنزل، لا تزيد مساحتها على الثلاثة أمتار مربعة، لا هاتف، لا كهرباء، بلغ عددهم إثني عشر فرداً، بينهم رضيع لم يبلغ الثلاثة أشهر وطفلان دون الثامنة.

إفترش الجميع الأرض، اتخذت الحاجة الجهة المقابلة للشرفة، الجميع يدعون ويقرأون القرآن، أما سارة فقد حضنت رضيعها تنظر إليه بعين دامعة، ما ذنبك يا ولدي؟!

لاذ الجميع في تلك الغرفة إلا الحاج، فبعد إصرار الجميع دخل إلى المنزل وجلس خلف الباب المطلّ للشرفة.

كانت ليلة جمعة قضوها بالقراءة والذكر إلى أن بزغ الفجر، أدُّوا صلاة

الفجر، وقرأوا دعاء الجوشن الصغير كما أوصى السيد ودعاء الندبة.

خرجوا إلى الشرفة الشرقية لزيارة الإمام الحسين عليه السلام وقفوا خلف الحاج. سمعوا منادياً: «صبّحك الله بألف خير، لا تنسونا من الدعاء»، إنه الحاج خليل جارهم.

توسّطت الشمس كبد السماء، كان هدوء ذلك اليوم موحشاً ينذر بعاصفة جديدة.

خرج الشبان إلى البيت. لا تنسوا الياسمينة والورود، اسقوها. قالت الحاجة.

وإذا طالت الهدنة، إذهب يا علي تفقّد أخواتك إذا كنّ يحتجن شيئاً.

عاد الشبان، ومع تلك العودة كانت العاصفة، وكان وجودهم مصدر اطمئنان للجميع، فكانت كلماتهم تبث الثبات في النفوس وتطرد الخوف: « إذا سمعتم صوت الطيران لا تخافوا فالقصف بعيد، فلا حول ولا قوة إلا بالله».

لم يوقف صراخ النساء إلا أصوات الإنفجارات التي كانت تهزّ الأرض تحتهم. وصل الشبان بإحصاء عدد الإنفجارات إلى الرقم ستة ولم تمضِ العشرون دقيقة منذ أول انفجار، بعد ذلك الرقم اختفى صوت الطيران ليزلزل الحيّ صاروخٌ غطّى المكان بالدخان، والمخلّفات.

هدأت الأصوات، وبدأ بعضهم يتفقّد بعضاً والغبار يحجب رؤياهم.

في تلك الأثناء رنّ جرس الهاتف في بهو البيت، الحاج من الخارج: «حاجة ساجدة أجيبي» .

الباب لم يُقفل

عنـد ذاك وضـعت الحاجة يدهـا على كتف ولدها محمد حسـن، حمدت الله « والدك بخير يا أمي!!» وخرجت من الغرفة.

رفعت السماعة.

كانت تصرخ: أمي! ماذا أصابكم أخبروني.

– لا شيء، يا فاطمة.

– كيف تقولين لا شيء والحيّ مغطّى بالدخان والغبار.

– كان القصف قريباً جداً منّا، لكن لم نصب بأي مكروه بحمد الله.

– أمـي أرجـوك. إحملـوا متاعكـم وتعالوا، فالقصـف علـى حيّنا متباعد حتى الآن.

– لا يا فاطمة، لقد استقرينا هنا.

– أقبّل يديك لا تدعي الشبان يخرجون كعادتهم.

توالت الإتصـالات، كلّها من أصحاب وأقرباء من خارج بعلبك، أو خرجوا بعد القصف، يسألونهم الخروج.

كان آخر الإتصالات من ألمانيا. حوراء:

– السلام عليكم، ماما أخبريني ماذا أصابكم؟

– لا تشـغلي بالك يا حوراء جميعنا بخير، أعصـابنا قوية، فالسيد كلما وجّه إلينا رسالة متلفزة يزرع في قلوبنا الطمأنينة والقوة. ادعي له بطول العمر والسـلامة. أخبرينـي يا حوارء لماذا تأخرت ولادتك؟ ألم تزوري الطبيبة!؟

– نعم يا أمي، قالت لي إنّ الضغط النفسي له أكبر تأثير على ذلك، لكن حتى العاشـر من شـهر آب إذا لم تحصل أي بوادر فإنها ستضطر

لإجراء عملية قيصـرية، أسـألك الدعـاء يا أمي. وأخبـرك بأنني الآن ممنوعة من مشاهدة التلفاز، ومعرفة أيّ خبر والخروج إلى المسجد.

- أوصيك يا حوراء، كوني قوية، كوني صخرةً صمّاء أمام كلّ الأخبار، كما أوصيك بأن لا تنسي السيد والمقاومين أثناء ولادتك. فتلك لحظات تكونين فيها بين يدي الرحمان الرحيم ودعاؤك مستجاب.

سـاد الأجـواء هـدوء، اخترقتـه فـي بعض الأحيان غـارات على السيارات المتنقلة على الطريق العام، حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر تموز، إذ كان ذلك اليوم يوم إستهلاكية الهدى كما أسْمَوه.

قـرروا الخروج ثانيةً مـن الحيّ، لكن إلى أيـن...؟ والحاج يرفض الخـروج. كانت الوجهة هذه المرة مجمّع مبرة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف في حي الشراونة حيث يعمل الحاج محسن.

وافق لكن كانت الموافقة قاسـية مشـروطة. اللجـوء لن يكون إلى مبنـى مبرة الأيتـام ولا إلى المدرسـة المهنية التابعـة للمبرّة، كي لا يتسببوا لهم بأذى من العدو، ولا يستعملوا أثاث المبرة. حصر الخيار فـي البقاء فقط في مسـتودع دار العجزة في المجمّـع، مع عدم إنارة المكان و عدم استعمال أي شيء خاص بالمؤسسة.

قبلـوا لكن على مضـض، فقط لأنّهـم يريدون الخـروج من الحيّ المنكوب.

عندها أشـارت الحاجة سـاجدة على ولدها علي بأن يترك زوجته ورضـيعها عند أخته فاطمة، خوفاً على صـحة الرضـيع من الرطوبة هناك.

الباب لم يُقفل

– إذاً جهّزوا أنفسكم ريثما أعود.

وصلوا، نزلوا مسرعين تركها وقفل راجعاً.

كان البقاء في حيّ «عمِشْكِة» أقل خطراً من حيّ الشيخ حبيب برغم استهداف بعض الأماكن.

جلست فاطمة مع أولادها، سارة الأخت مع أولادها، وسارة زوجة الأخ مع رضيعها، مع بعض مَنْ صمد من أهل زوج فاطمة.

بينما كانوا يتناولون أطراف الحديث، صراخ وولولة عمّ المنزل، أم صادق أم صادق، أين أنت؟!

– إنه صوت أم عبدو جارتك، ترى ماذا جرى لها؟!

– يا أم صادق إحملي أولادك وثيابكم وارحلوا بسرعة، سيقصف بيتي.

– بيتك!؟ ولماذا يقصف؟.

– قال لنا أحدهم بأنّ إسرائيل تقصف المراكز الجديدة والقديمة، وبيتي كان مركزاً قديماً.

دبّ الذعر في المنزل، هاتفت سارة زوجها ليعود ويأخذها، وبدأت تبكي وتقول: لو كنت أعلم لما قبلت المجيء.

عندها قالت لها فاطمة: ومن قال لك بأنّ حيّ الشراونة آمن.

وصلوا إلى مجمّع مبرة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، المجمّع في أول حيّ الشراونة، إذا اتّجهت غرباً تصل إلى محطة توليد الكهرباء تليها إيعات، شمالاً محلّة تلّ الأبيض، وصولاً إلى مستشفى دار الحكمة تليها بلدة الجمّالية ومقنة، جنوباً بعلبك وشرقاً جُرُود بعلبك ـ نحلة.

مدخل المجمّع، بوابة حديدية كبيرة توصل إلى مدخل مبنى المبرة الأول، وإلى جهة اليمين مبنى المدرسة المهنية، وإذا اتجهت يساراً تصل إلى المسجد التابع للمبرة يليه دار ضيافة أصحاب العمر المديد.

دخل الحاج محسن إلى الدار، فتح خزانة صغيرة إلى جانب الحائط، فيها مفاتيح معلّقة، أمسك مفتاحاً كُتِبَ على تعليقته مستودع، وأشار إليهم بالتوجّه إلى أسفل الدرج.

نزلوا، لكن عندما وصلوا صُدِمُوا لما رَأَوْه، خزان المازوت في زاوية، أدوات خاصة بالعجزة، ومساحيق تنظيف، وهنا لا حاجة لوصف رائحة المكان.

٣٠ تموز ٢٠٠٦ ألمانيا

... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فرغا من إقامة الصلاة، جلسا يتبادلان الأحاديث.

آهٍ يا زياد ....

لو كنتُ بينهم لكانت الأيام أخفّ وطأة على صدري، والليالي أقلّ سواداً أمام عيني، فمن يشارك أهله بالأسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الإستشهاد، بل و يفتخر بنفسه لأنّه يشاركهم في الجهاد ... السائرين في موكب نحو مجد الإستشهاد، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة، أعيش في ظلّ الطمأنينة وخمول السلامة، بعيدة عن الحرب وعنهم ولا أستطيع أن أفتخر بنفسي ولا حتى بدموعي.

الباب لم يُقفل

وماذا عسى يقدر البعيد أن يفعل لأهله؟!!.. وعلا بكاؤهما.

أمسك زياد رأسها مسح دموعها وقال ادعي لهم، إنهم منتصرون. فلنتواصل معهم بقراءة دعاء الجوشن الصغير.

.... افترشوا أرض ذلك المستودع. كلما غفا أحد الأطفال وحاول إلقاء رأسه على أشياء تشبه فراش النوم، صرخ ماما الرائحة. ويسود الجلسة جوّ باكٍ، فقد كان لهؤلاء الأطفال بيت جميل ومريح يجاورهم دار جدّهم، لكن لم يعد هناك بيت...

كان الصعود إلى الطابق الأرضي نهاراً فقط، في أوقات الصلاة، وعند الحاجة لاستعمال دورة المياه.

أما الحاج فقد كان يقضي معظم أوقاته تحت الأشجار الوارفة الكبيرة في الحديقة وعند موعد الصلاة يؤدي الصلاة في المسجد ثم يعود لمجلسه.

كانوا يلتقون في أوقات الصلاة في المسجد، يرجونه للنزول معهم إلى الأسفل وتناول الطعام.

فتح الباب دخل محمد علي. طال العناق، كثرت الأسئلة والإستفسارات.

استعجلتهم الحاجة للنزول وتناول الطعام.

نهض الطفل حسن عن كرسي بجانب والدته، سأل جدته: ماذا سنأكل اليوم يا جدتي؟

- بطاطا.

- بطاطا يا جدتي، كلّ يوم بطاطا.

ضحكت الجدة مستهزئة بألم. وقالت: اليوم بطاطا مسلوقة.

- كرهت البطاطا يا جدتي. وتوجه إلى والدته قائلاً: خذونا إلى بيتنا، لدينا هناك طعام متنوع كثير. لم يدرِ أنّ منزلهم دُمِّر.

أردف الخال: آجركم الله يا خالو، واحتسبكم مع المجاهدين الصابرين.

ثم وقف في وسط المطبخ، أخرج جريدة من كيس كان يحمله، قال:

صلوا على محمد وآل محمد.

فتح تلك الصحيفة المؤرخة بالثلاثين من شهر تموز، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أحبائي كان الله بعونكم، لا مذياع لا تلفاز، افتقدنا لكم كثيراً لكن سأوافيكم بأهمّ الأخبار.

سأبدأ بمفاجأة تفرح قلوبكم قبل أخبار المفاجآت العسكرية.

صرخ الجميع عرفناها، خطاب للسيد. قال نعم ومَنْ غيره؟!!

كان له مساء أمس حديث مطوّل على قناة المنار. توجّه في آخره إلى الناس وأجاب عن رسالة المجاهدين له.

أما رسالتكم فهي: وسكت دامع العين.

اغرورقت العيون بالدموع، لهجت الألسنة بالدعاء، أما الأطفال فصاحوا: يا الله يا الله احفظ لنا نصر الله.

يا الله قالها وبدأ:

... أيّها الإخوة والأخوات، أصل إلى المقطع الأخير من كلمتي وفيه كلمة للناس الطيبين الصامدين في مدنهم وقراهم، وللنازحين

الباب لم يُقفل

قهراً عنها، للصابرين المحتسبين، للواثقين بالنصر، للذين أدهشوا العالم بصبرهم وصمودهم وثقتهم وتماسكهم، للشيوخ الكبار والنساء والأطفال والمرضى، للعائلات التي تفترش الأرض وتلتحف السماء دون أن ينال ذلك من إرادتها، شهامتها وشجاعتها، ماذا أقول لكم، وهل هناك قول يفي حقكم ومقاومتكم!

أقول لكم أنا وإخواني، فداؤكم أرواحنا ودماؤنا وأنفسنا فداءٌ لدموعكم وجراحكم وصمودكم وشموخكم.

أيها الأحبة ستعودون إلى الديار، هاماتكم مرفوعة أعزاء كما كنتم وكما أنتم وستبقون، ليس عندنا سوى الوعد بالنصر الذي تحبون، والقول لكم جزاكم الله خيراً في الدنيا وفي الآخرة، يا أشرف الناس وأكرم الناس وأطهر الناس.

لم يكد علي ينهي قراءته حتى عانق كلّ مَنْ كان بجانبه وعلا البكاء والدعاء للسيد بالسلامة وطول العمر.

وقرّروا ذلك اليوم تناول الطعام في قاعة المطعم وقوفاً قبل النزول إلى المستودع.

مرّت الأيام على تلك الوتيرة، جلوس في المستودع ليلاً، خروج في أوقات الصلاة فقط، عدم الصعود إلى الطابق الأرضي بعد غروب الشمس.

جفا النوم عيونهم، هجرتهم الراحة، أدمى حزن الأطفال قلوبهم، فهم دائماً يكرّرون المقولة ذاتها، في بيتنا أكل كثير، سرير نظيف، ماء، تلفاز، رائحة بيتنا جميلة. الحاجة تحضنهم تطيّب خاطرهم.

خطـرت في بالها فكرة، نـادت ولدها محمد حسـن، تمتمت في أذنه كلمات فخرج.

لـم تمضِ دقائـق حتى عـاد حامـلاً بيـده سـبحات علـى عدد الموجوديـن.

قدّم ما حمله لوالدته، أشـارت على الجميـع بالإنتباه، أتى كلامها بطريقة تجذب الأولاد أولاً.

أحبائي إذا كنتم تحبّون السيد حسن والمقاومين وتأملون الخروج كما قال حفظـه الله مرفوعي الرؤوس والهامات، فليمسـك كلّ واحد بمسـبحة ويصـلِّ على محمد وآل محمد عدد حبّاتها، ومَنْ يبلغ رقماً قياسياً له مكافأة إذا خرجنا بخير.

أضفت تلك الفكرة جوّاً من الحيوية والنسيان وبدأ الأولاد من تلك الليلـة ينامون على ما كانوا يرفضـون الجلوس عليه ببركة محمد وآل محمد.

إلى أن جاء ليل الثاني من شهر آب.

تلك الليلة طالت جلسة محمد حسن خارجاً تحت شجرات السرو، يقـرأ القرآن ويتوسـل إلى الله بالفرج، وأثناء توجهه نحو المسـتودع، سمع جرس الهاتف فعاد مسرعاً إلى القاعة، رفع السماعة. إنها أخته فاطمة، عند سـماع صـوته تنهّدت حامدة الله، ما بكم يا أخي؟ لماذا انقطع الإتصال بكم؟

أجابهـا: تعلميـن يا أختي أنه في الطابق السـفلي لا يوجد إرسـال هاتفي أصلاً.

الباب لم يُقفل

– ظننت أنكم عند خالي رستم مع العائلة، فأخبرني بوجودكم هنا، وأنه لا يستطيع فتح باب المحل والخروج لأنه مقابل للشارع العام، فذلك يشكّل خطراً.

– أخبريني عنكم يا أختي.

– الجميع عندي بألف خير. حالنا كحالكم مع فرق وجودنا في بيتنا، أما القصف فقد اعتدنا على ذلك وصوت الطيران أصبح يرافقنا، اعتدنا عليه وصرنا على خبرة بالغارة الوهمية أو الحقيقية، نعاني قليلاً مع الأولاد فهم لا ينامون، فأصبحنا نستعمل لهم عقارات السعال لمفعولها المنوّم ونسهر نحن حولهم.

لكن الوحيد الذي ليس للعقار تأثير عليه، هو ولدي صادق. لا ينام ولا يهدأ، فكلّما سمع صوت طائرات يخرج ويشير لهم صارخاً: اضربونا نحن هنا، لا تقدرون يا جبناء.

ولا يدخل إلا بعد انتهاء الغارة وهمية كانت أو حقيقية. ويعلو صراخ الجميع طالبين منه الدخول. إذا كتب الله لنا والتقينا، ذكّرني بأن أريك ما أخذه صادق من صور للغارات على حي الشيخ حبيب وحي العسيرة، وكان أول مَنْ عرف بتدمير بيت خالته مروة وعمّته سمر في حيّ العسيرة.

– لقد أطلنا الحديث يا أختي.

–أرجوك يا أخي بلّغهم سلامي واسألهم إذا كانوا يحتاجون شيئاً فأرسله إليهم مع أخيك، فإنّه كل يوم يمرّ بنا. اسألهم وسأعاود الإتصال، إصعد بسرعة.

في تلك الأثناء سمعت عمّها يتكلم مع صهره على هاتفه الجوّال.

أنهى المكالمة، قال: محمد يسلّم عليكم جميعاً ويسألكم الدعاء. وأخبرني أنّه توجّه من فوقهم سرب طائرات مروحية آتٍ من خلف السلسلة الغربية متوجهاً نحو بعلبك.

عاودت الإتصال وأخبرت أخاها. وأصبحت بعلبك في حال لا تحسد عليها.

... في سكينة الليل هبط، توارى القمر وراء السواد، توشّحت المدينة بنقاب الخيال، وأصبح كلٌّ يسأل الآخر، ما الأمر!!...

كانت ليلة عصيّةً على الوصف، لكن مَنْ كان في حي رأس العين ليس كمن كان بجوار مستشفى دار الحكمة، انقطعت الإتصالات في بعلبك بشكل تام، أسراب من الطائرات الحربية والمروحية تهدر في الأجواء، أنوار بنفسجية برّاقة غريبة أضاءت المدينة، أصوات انفجارات تدوي بشكل متواصل، الكهرباء مقطوعة بشكل تام.

ظنّ الناس بأنّ شركة الكهرباء قصفت، فلم يعودوا يميّزون لكثرة الأنوار في السماء، مشهد يحتاج لعدد كبير من المهندسين وخبراء التصوير والمؤثرات الصوتية، قامت به بضع طائرات فقط.

الجميع في دار الحاج صادق جلسوا في غرفة وسط البيت، أرخوا الستائر، وتحلّقوا حول جهاز تلفاز يعمل على بطارية السيارة.

أوردت قناة الجزيرة الإخبارية نقلاً عن قناة المنار أنّ القوات الإسرائيلية تقوم بعملية إنزال على مستشفى دار الحكمة في محلة تلّ الأبيض شمالي بعلبك وعلى حيّ العسيرة في بعلبك أيضاً.

الباب لم يُقفل

بينما كانوا يراقبون جهاز التلفاز، أضاء المنزل ضوء بنفسجي برّاق آلَمَ عيونهم، فأوقفوا جهاز التلفاز وتحضّروا لملاقاة المجهول. أما الثلاثة فاطمة، سارة الأخت وسارة زوجة الأخ ، ومع كل انفجار تقول الواحدة للأخرى لا بدّ أنّ هذا الصاروخ أصاب أهلك.

تعبن من عدّ الصواريخ، وتوجّهن للصلاة والدعاء وقراءة القرآن، الساعات تمرّ والأصوات تهدر، سارة، فاطمة، فاديا، سارة، يتبادلن كتب الأدعية، كلما انتهت واحدة من دعاء تعطيه للأخرى، إلى أن دنت الساعة الثالثة والربع، كان قد مضى ما يقارب الخمس ساعات وخمس دقائق على بدء العملية. والطفل صادق جالس على رأس المنضدة التي لا يتجاوز عرضها العشرين سنتيمتراً، ممسكاً ركبتيه بكلتا يديه.

نظرت إليه والدته، قالت: منذ ساعة كنت تصفنا بالجبناء، ما بك؟!

قم نصلِ صلاة التوسل بالإمام الحجة عجل الله فرجه الشريف ونسأل الله العون والفرج.

أجابها صارخاً: وهل أنت مجنونة! كيف سنتوضأ ونتحرك بدون ضوء؟

أعانهما الله، ساعدته ليتوضأ، أقاما الصلاة متابعة، وبعد الفراغ من الصلاة، سكينة برّدت قلبه وأشعرته بالنعاس، فقال لوالدته سأصلي صلاة الفجر.

أنهى صلاته، تنهّد تنهيدة عميقة، قال، شعرت بالنعاس، سأنام أيقظيني عندما يغادرون.

جلست النسوة كلّ بجانب أولادها، بيد تمسك القرآن أو كتاب الدعاء وبالأخرى تمسح رؤوسهم، ولسان حالهن يقول: عادوا أطفالنا، فتلوهم ولا ذنب لهم غير أحلامهم، فليضربوا وليقتلوا، إنّ الروح فيهم جوهر لا يضام، فهم كواكب لا تسير إلى الوراء في النور أو في الظلام.

في حيّ عمشكة استطاع الأطفال النوم أمّا في حيّ الشراونة فكان الوضع أشدّ إيلاماً.

الحاج محسن كان أول الخارجين من المستودع عند الرابعة ليلاً إلى المسجد.

كان كلّ واحد يتوسّل إلى الله لسلامة غيره، إذ توزعت العائلة على أماكن ثلاثة أو أربعة. الشبان في المنزل في حيّ الشيخ حبيب، البنات في حيّ عمشكة والوالدان ومَنْ تبقى من العائلة في مجمّع مبرة الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف في الشراونة.

عند ملامسة أشعة الشمس خرج الحاج من المسجد، اتجه شمالاً نظر نحو الشارع العام فإذا بتلة صغيرة من الأتربة والأحجار ترتفع أمام محال الحاج رستم وأغراض المحال متناثرة على الطريق.

عاد مسرعاً إلى قاعة الدار وهاتف الحاج رستم اطمأن على سلامته وسلامة زوجته وابنته نسب، وكانوا قد لجأوا إلى غرفة صغيرة خلف المحال بعد تدمير منزلهم في حيّ العسيرة.

شهد ذلك اليوم العودة الأولى إلى حيّ الشيخ حبيب.

عادوا ....

عادوا نادمين على الخروج، فالحاجة أضرّت الحساسية صدرها من

الباب لم يُقفل

رائحة المازوت، ومحمد صهرها اشتدّ به المرض بعد تدمير منزله، أما همّهم الأول فكان إزالة سبب خروج الشبان المتكرّر من المنزل.

وصلوا إلى بيت الجدّ «أبو رستم» في حيّ الشيخ حبيب آل إبراهيم إذ كان منزلهم بحاجة إلى الكثير من الترميم والتنظيف.

ترجّلوا من السيارة، عندما خرجوا تركوا الباب مقفلاً سليماً، وجدوه مكسوراً لكنهم لم ينتبهوا لذلك.

كان أول الداخلين ركضاً الأطفال، كمن خرج من سجنه، لكنهم لم يدروا أنهم انتقلوا من سجن إلى سجن آخر مضيء.

دخل الكبار على مهل، ينظرون ويراقبون آثار القصف، عانقوا الجدر بعيونهم، مباشرة توجّه الحاج إلى المكان الذي كان يجلس فيه، وجد الأطفال على الأرض عصفوراً تركوه في قفص معلقاً إلى الحائط، حملوه وتوجهوا به مسرعين إلى الغرفة التي كانوا يلوذون فيها، فوجئوا بخالهم حسين يغطّ في نوم عميق أيقظوه، «رجعنا يا خالو»، لكن ....

لم تكن فرحته بهم كفرحتهم به، فرك عينيه نظر إليهم:

- لماذا رجعتم؟

- اشتقنا لكم.

- أما أنا فلا، لقد ارتحنا من الصراخ والعويل ونمنا مرتاحين. الآن اخرجوا أريد أن أنام، بالأمس لم ننم أبداً.

أخرجت مروة أولادها، سألت علياً: ما به حسين؟

أخبرها بأنهم لم يناموا تلك الليلة، جلسوا كلٌّ يحمل سلاحه ويحمي النقطة التي كان فيها.

لـم تكد تعتاد العائلة ثانية على البقاء في ذلك المنزل الفارغ حتى عاد شبح الموت وعاد الرعب من جديد.

غبار كثيف غطّى المنزل، الأحجار تساقطت على المنزل، البقايا تتناثر على الشرفات.

جلا الهدوء دويّ انفجار قوي، صرخت الحاجة ساجدة: يا علي، الضرب على جهة مسجد الإمام علي عليه السلام ، أنظر أباك يا علي. وفقدت وعيها.

خرج علي مسرعاً، لم يجد والده، الكرسي الذي كان يجلس عليه غير موجود، هناك قطعة من جدار كبيرة الحجم وبعض الأوراق المتناثرة.

يا ربِّ .... أين والدي؟....

دخل على مهل إلى المنزل، قال لأخته مروة همساً لم أجد والدك مكانه، تعهّدي والدتك بالعناية، سأخرج وأبحث عنه.

خرج من ناحية المطبخ إلى شرفة المنزل الغربية عاين الأضرار، فوجىء بوالده هناك، يحمل المصحف خاصته بين يديه، عانقه علي، قبّل يديه، حمد الله على سلامته.

قال له: أرجوك أسرع كي تراك أمي.

توجّه علي نحو مجلس والده ليفتش بين الأوراق التي رآها على الأرض هناك.

أمسك ورقة مسّدها نظّفها من التراب، فإذا هي صفحة من القرآن الكريم، ٣٨٨ – ٣٨٩ من سورة القصص، الجزء العشرين.

أمسكها، قبّلها، بدأ يقرأها، وصل إلى الآية ٣٥:

الباب لم يُقفل

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطاناً فلا يصلون إليك بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون﴾. صدق الله العلي العظيم.

عند ذاك دخل مسرعاً إلى الغرفة قال لهم: انظروا مهما طالت الحرب ومهما قست علينا الظروف فلن نغادر هذا المكان.

لقد كان القصف على مبنى التعبئة التربوية القديم، فقد تناثر منه عدد من الأوراق الممزقة، ووصل بعض منها إلى الشرفة. وقعت ورقة في المكان الذي كان يجلس فيه والدي وإليكم ما وجدت وقدّم إليهم تلك الصفحة.

عندما قرأوا تلك الصفحة ذُهِلوا لما قاله علي، استقامت الحاجة في جلستها، توجه محمد إلى زوجته مروة، هل عرفت يا مروة لماذا لم أترك ولن أترك أهلك مهما حصل؟عمي حرز علينا جميعاً، والمقاومة منصورة بإذن الله.

٦ آب ٢٠٠٦ ألمانيا

... عاد زياد من عمله، وجدها تعاني آلاماً صعبة، هاتف طبيبتها، فطلبت التكلم معها، بضع دقائق مرّت، وضعت السماعة من يدها ألقت برأسها على صدر زوجها، أجهشت بالبكاء، تأخذه إلى صدرها مع اشتداد الألم ثم ترتاح لتقول: «خذني إلى أمي، أحضرها إليّ»، ثم تبكي وتقول متى وكيف ستكون النهاية؟

حوراء. كلانا بعيد عن أهله وأحبابه بعيد عن بلاده، اربطي جأشك

وكوني صابرة، ساخرة بهؤلاء الحاقدين الضعفاء الذين يفوقوننا بعددهم لا بعزم أفرادهم.

انعقد لسانه عن الكلام، ناب الدمع عن الكلام وحامت ملائكة السرور حول ذلك البيت، وقرروا الإنطلاق نحو المستشفى.

ساعتان مليئتان بالأحاسيس والأماني المتناقضة. تغيب ثم تستعيد وعيها لاهجة بالدعاء للفرج والنصر وطول العمر للسيد، ربِّ اجعل نهاية آلامهم كنهاية آلامي.

أثار حديثهما فضول الممرضة المساعدة فسألته:

«ماذا قالت للتوّ»؟

أجابها: «تمنّت لو أن والدتها بجانبها».

صرخة قوية، كانت الأخيرة آذنة بالولادة.

صاحت الطبيبة: جميل جداً!

فتحت حوراء عينيها، سألت عن جنس المولود، ذكر أم أنثى؟

أجابت الطبيبة: «لقد جاءتكم فتاة جميلة».

قال زياد: لقد أتتنا وعد يا حبيبتي.

إنه الثالث عشر من شهر رجب.

حمداً لله على سلامتك، إفرحي يا حوراء.

آه يا زياد، ألم الحبل السري يبرأ في اليوم السابع لكن من كانت أمه الوالدة بعلبك، فلم ولن يبرأ حبله.

غضبت طبيعة بعلبك، غدت صباحاتها شاحبة، يبست وريقات ياسمينة دار الحاج محسن، حقد ظلوم قبض بأظافره المحددة على

الباب لم يُقفل

مظاهر الحياة فسحقها، نار آكلة التهمت الأرزاق، والأعمار، ليل قاتم أخفى جمال الحياة فيها تحت لحف الرماد، تمخّضت به متوجعة دماً ناراً خراباً فولدت نصراً مخضباً.

أما هناك على المقلب الثاني.

كان يوم السادس من آب يوماً أسود مشؤوماً في تاريخ جيش الأسطورة، وشهد أهم ضباطه بأنه أصعب يوم مرّ منذ بدء الحرب، فضربات المقاومة وصلت إلى العمق في الناصرة.

مع اشتداد الألم على الشعب المظلوم بدأت ملامح الراحة تلوح، فما العيش سوى ليل إذا جنَّ انتهى بالفجر والفجر يدوم.

مع قساوة تلك الأيام، وتعدد المجازر واشتداد الخوف، فإن ملائكة الطمأنينة والسرور كانت تخيم على ذلك البيت بعد وقوع تلك الصفحة من القرآن.

ودنت الليلة الأخيرة، فلم يُخْلِ طيران العدو الأجواء دقيقة واحدة، حتى أن من بقي في بعلبك بدأ يتحرك بشكل عادي غير آبه بما يسمع.

عند الغروب وكالعادة، أقام الجميع الصلاة، جلسوا يناقشون قرار وقف إطلاق النار الذي سيدخل حيّز التنفيذ في الثامنة من صباح اليوم التالي، ثم خلدوا إلى النوم.

في غلس الليل العميق، وقد هبّ النسيم معطراً بأنفاس الفجر الأولى، وقفت الحاجة خلف ما كانت تسمى قبل الحرب نافذة، تنظر إلى الحي الهاجع في سكينة الليل، دخلت إلى الغرفة الصغيرة وجدتهم نائمين مستيقظي الأرواح.

خاطبتهم، أحبكم جميعـاً، أناجيكم في نومكم وفي أحلامكم، متى ستكون ساعة يقظتكم، لا يعلم إلا الله متى وكيف ستكون. تمتمت الحمد لله أننا تمكّنّا من الإغتسال غسل الشهادة وتنهّدت تنهيدة مودّع.

بينما كانت تناجيهم، ناداها هاتف، اسكتي حتى الصباح فمن يترقب الصباح صابراً يلاقيه قوياً، ومن يهوى النور فالنور يهواه.

اسـكتي حتى الصباح فمن يترقب الصباح متجلِّداً يعانقه الصباح مشتاقاً.

جفا عيونها النوم تلك الليلة وقضت ذلك الليل تتفقد النائمين في الغرفة تارة، والحاج النائم في الصالة الأخرى تارة أخرى.

وتفتقد لمحمد حسين النائم وحيداً في المنزل.

سهرت حتى الصباح وهي على يقين بأن السهر يدني من النجوم، والبركة ابنة الدموع والحق ابن الدماء.

الإثنين ١٤ آب ٢٠٠٦

... بـزغ فجـر ذلـك اليـوم، اسـتيقظ الجميع على صـوت الحاج محسـن: نصـراً مباركاً، الحمـد لله على سـلامتكم وقبّلهـم واحداً واحداً، وناداهم «إلى الصلاة يا عباد الله».

استيقظ الجميع على صوته الذي افتقدوه لثلاثة وثلاثين يوماً.

بعد فراغهم من إقامة الصـلاة، جلسوا جميعاً حول جهاز المذياع يسـتمعون الأخبار إلا الحاج،فقد قام يجمع فراشـه وأغراضـه، حمل قرآنه، وقال لهم أنا عائد إلى البيت، من يريد أن يرافقني؟

الباب لم يُقفل

إتجه صوب الباب تبعته الحاجة فقالت لها مروة: انتظرا نصف ساعة ويدخل القرار حيّز التنفيذ.

لم يرجعوا ودّعاهم وانطلقا. ثم تبعهما الأولاد مسرعين. وصلوا إلى البيت، الباب الخارجي مفتوح، تراجع الحاج عن الباب خطوة، سجد سجدة شكر لله.

خنقته العبرة، قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل». وتوجه نحو والدته، خاطب روحها: ها نحن عدنا إلى بيتك يا أمي، عدنا يا أماه لم نقفله ولم أحمل مفتاحه. ثم خطا داخلاً المنزل.

تقدمت أمامه الحاجة لتنظف له مكاناً يجلس فيه، أما هو فتوجه نحو الصالة التي كانت آخر ما يلقي عليه نظرة الوداع. تمتم ربِّ ساعدني لأعيد ترميمها بحق دم الحسين الشهيد عليه السلام.

جال في المكان قليلاً ثم، تحوّل وطلب من الحاجة أن تترك تنظيف الدار له، فدخلت مع من عدن معها ليعملن في الداخل فالمنزل منكوب.

بدأت الحاجة الإشارة إلى الصبايا بكيفية بدئهنّ بالعمل، فقالت لها كنّتها: قبل أن نبدأ أريد أن أسألك: لماذا تذكر عمي والدته، وهل تعرفين سبب ما قاله؟

«يا ابنتي ما قاله كان سبب رفضه الخروج من المنزل وعدم إقفال الباب عندما لجأنا إلى منزل أهلي».

أفصحي أكثر أرجوك لم أفهم.

نشأ عمك يتيم الأب إذ توفي والده وكان له من العمر خمس

سنوات، تعهده جده لأمه«الحاج محسن الجوهري» بالرعاية إلى جانب والدته، التي عاكستها الظروف وقهرتها. وعندما كبر الأولاد أي عمك وأخواته الحاجة أم علي، والحاجة أم حسان، وهبها والدها قطعة أرض بنت عليها بيتاً صغيراً كان اللبنة الأولى لما نسكنه اليوم، فقد كانت تسمى هذه المنطقة كروم بعلبك، سميت بعد ذلك بحي الشيخ حبيب آل إبراهيم وهو عالم جليل قدم من جبل عامل وسكن الحي، والمنزل الذي يسكنه أولاده اليوم لا زال هو نفسه، وأشارت إلى المنزل الذي يقابل منزلهم تماماً خلف المسجد. إذ نشأ عمك وترعرع إلى جانب الشيخ حبيب رحمه الله وجده وعمه أي والدي.

عفواً، خرجت عن الموضوع لكن عملت الحاجة رحمها الله بالخياطة والزراعة حتى بنت غرفتين ومطبخاً، ولضيق حالتها المادية أنهت غرفة واحدة، وسكنت فيها مع أولادها.

صادف في تلك السنة حدوث نكبة فلسطين (١٩٤٨) وخروج الفلسطينيين على أمل العودة الذي وعدهم به العرب ومجلس الأمن.

كانت حصة بعلبك من اللاجئين لا بأس بها، فقررت الحاجة أن تؤجر الغرفة التي تسكنها والأولاد لعائلة فلسطينية، وكان المطبخ مشتركاً.

نشأت علاقة ودٍّ ومحبة وتعاطف مع قضيتهم، وعاشوا عائلة واحدة.

وكانت كنية هذه العائلة «كعوش» ولا زال الأحفاد يعيشون حتى

الباب لم يُقفل

اليوم في مخيم الجليل في بعلبك كما أخبرني عمك، وهم متعلمون.

خلقت هذه العائلة حافزاً غريباً عند الحاجة كي تعلّم أولادها وتجعلهم يحملون شهادات علمية إضافة إلى مهارات أخرى، ولكن أكثر ما كان يؤلمها هو عندما يخبرونها بأنهم يملكون دوراً وأثاثاً وهم من عائلات معروفة هناك.

فكانت كل ليلة قبل أن تنام تبكي لمصابهم وتتوجه لأولادها الثلاثة بالقول:

«مهما قست عليكم الحياة ومهما عانيتم من ظلم، لا تخرجوا من دياركم وتأمنوا لحمل مفاتيحها. أوصيك يا محسن، بيتك عرضك لا تتركه، لا تأمن أحداً عليه».

كبر محسن بعون الله ورعايتها وبدأ العمل، كانت أول هدية لأمه وأخواته زيارة المسجد الأقصى في القدس عام ١٩٦٢.

عرفت الآن يا بنية لماذا لم يقفل الباب؟

خاتمة

بوركتم أيها الصامدون

«أيها الفلاحون الذين يحوّلون الوعر إلى حدائق وبساتين. يا من تولدون في الأكواخ الفقيرة وتموتون في قصور العز والإيمان والمجد.

أنتم يا أبناء لبنان، أنتم السُّرُج التي لا تطفئها الرياح، أنتم الملح الذي لا تفسده الدهور.

يا شهداء الوعد الصادق لا أبالغ إذا شبهتكم بالليل، فأنتم مثله توّجَكم الجهاد بإكليل من ذهب، ورصّع صباح النصر أذيالكم بأشعته الوردية.

تناديكم بعلبك، أنا الرحم وأنا القبر وسأبقى رحماً وقبراً حتى تضمحّل الكواكب وتتحوّل الشمس إلى رماد».

الباب لم يُقفل

ملحق

عزيزي القارىء

أحداث هذه القصة واقعية بأكملها، الأسماء حقيقية، تحديد الأماكن دقيق. فقط هناك تصرّف في سياق السرد.

حدث ولادة «حوراء» واقعي، والإبنة «وعد زياد الطفيلي» حيّة ترزق، وكلّ ما ورد صحيح.

الصور التي أخذها الطفل «صادق محمد عبد الساتر» حفيد الحاج محسن، استعانت بها جمعية بلجيكية قدمت دعوى إلى مجلس الأمن الدولي بحق إسرائيل حول جرائمها في حرب تموز، وذلك بواسطة ابن خال والدته الذي دُمِّر منزل أهله وإخوته، في حي العسيرة، وقد حضر بعد الحرب وأخذ الفيلم.

المعلومات والوقائع، خطابات السيد حسن نصر الله، وبعض الأحداث، نقلت بالتوثيق عن كتاب «النصر المخضب»، الذي أصدره «المركز العربي للمعلومات (السفير)» بعد الحرب، الطبعة الأولى، تشرين الأول ٢٠٠٦، بيروت.

الباب لم يُقفل